الأحد: 2023/10/15

التوقيت: 11:20 – 12:50/ **القاعة:** 14 في الكلية

المحاضرة رقم 02: فنون النّثر العربي الحديث
قوانين وجودها وتطورها

شهد النّثر الفني بأنواعه في العصر المملوكي انحطاطا وركودا وضعفا، لأسباب سياسيّة وثقافيّة غلب عليها التكلّف، فانحصرت في مجلات ضيقة كالتّهنئة والتّعزيّة والاعتذار والمجاملة وغيرها من الموضوعات المتداولة بطريقة لا تسمو بها الفكرة ولا يعلو بها الأسلوب. لكن كانت النّهضة الحديثة وعواملها بسبب مباشر في تحرّر الفكر العربي من قيود التصنّع.

لقد أسهمت العوامل التي تحدّثنا عنها في المحاضرة السابقة حول نشأة فنون النّثر العربي الحديث في نقل النّثر من حالة الضّعف والرّكود إلى حالة النّهوض والتطوّر، وقد شمل هذا التطوّر لغة النّثر وموضوعاته وفنونه، وقد تجلّى إسهام هذه العوامل في النّهضة الأدبية في مظاهر مختلفة، نذكر منها:

1- اتّساع حركة التأليف والنّشر لتلبية حاجة المدارس والمدرّسين لكتب المقرّرات المدرسيّة والكتب العلمية الأخرى، فقد استعان مؤسّسو المدارس في أوّل الأمر بالكتاب الأجنبي الذي تتم ترجمته، ثم ما لبث خريجو المدارس والعائدون من البعثات أن تصدّوا لوضع هذه المقررات ولاسيّما ما يتّصل منها بالعلوم الإنسانية والآداب.

2- الانكباب على التّراث القديم بتحقيق مخطوطاته ونشرها نشرا علميّا ييسّر على القارئ الانتفاع بها من غير جهد. كما أنّ نشر هذه المخطوطات شجّع الجيل النّاشئ من الكتّاب والشّعراء على محاكاته وتقليده. ويُضاف إلى ذلك البحوث والدّراسات والمؤلّفات التي وضعت للتّعريف بذلك التّراث وتقريبه من القرّاء بشرحه ووصفه والتّعليق على ما فيه من مظاهر القوّة والجمال الأسلوبي.

3- كان من نتيجة الاطلاع على الآداب الغربيّة والتعمّق في معرفة ما لدى الآخر أن ظهرت فنون أدبيّة جديدة، منها: المقالة، الخاطرة، القصّة، القصّة القصيرة، الرّواية، المسرحيّة بشقّيها الشّعري والنّثري.

4- تعزيز مكانة اللّغة العربيّة: فنحن نعلم أنّ هذه اللّغة بسبب الأحداث السياسيّة التي مرّت بها البلاد العربية قبل النّهضة الحديثة، ظلّت فترة طويلة مبعدة عن الاستخدام في الدّوائر الرّسميّة والمراسلات ممّا أضعف السّليقة اللّغويّة الفصيحة، حتّى جاء العصر الحديث الذي مكّن الكتّاب من الاطلاع على كتب التّراث اللّغوي والأدبي بعد طباعتها ونشرها، ومكّنهم كذلك من الالمام بأساليب النّثر لدى الغربيين، وهذا نفخ في اللّغة العربيّة روحا جديدة عادت بها إلى قوّتها ورصانتها.

5- إحياء الأدب العربي: شعره ونثره، والذي قام على ركيزتْين:

الأولى: نشر كتب النّثر الأدبي المخطوطة وتحقيقها وشرح الغريب فيها وتزويدها بالملاحظات والهوامش، ككتب المقامات والرسائل والخطب وغيرها.

الثانية: مجاراة هذه الفنون النّثريّة ومحاولة تقليدها والإفادة من طرائقها وأساليبها وموضوعاتها في الفنون النثرية الحديثة، فمن المعلوم أنّ القصة العربية الحديثة _ مثال _ لم يكن مصدرها الأدب الغربي وحده، فقد أخذت من المقامات العربية وقصص الحيوان والقصص المترجمة مثل: كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة.

كانت الكتابة قبل عصر النّهضة تسير وفق أسلوب مقامات الحريري في الاهتمام بالشّكل والصّنعة والبديع والقيّاس، وكان للصّحافة الدّور الحيويّ في ابتعاد الكتّاب من الزّخرف والجناس والحشو والميل إلى السّهولة والجهد البسيط في القراءة، بسبب مخاطبتها كل طبقات المجتمع وحاجتها إلى إفهام القارئ ضرورة ويعيه بكل ما يقرؤه وعيّا صحيحا ويفهم ما يعرض من المشاكل لمعايشته لها في المجتمع والحياة .

لقد أصبح الأسلوب يتنوّع تبعا للغرض الذي يقصد به، ونسجوا على منوال ما ترجموه من القصص والرّوايات مع الحفاظ على صفات اللّغة وخصائصها وظهرت هذه التّطورات بصورة تدريجيّة بمرور الزّمن، وكان للقديم مؤيدوه، وللحديث أتباعه، ولعلّ التّطور الحاصل في **فنون النّثر العربي الحديث قوانين وجودها وتطورها** تجلّ وبرز من خلال ثالثة محاور أساسية قام عليها ونهض بها، هي:

1- اللّغة:

لقد تحرّرت من قيود التكلّف والصّنعة والتعقيد والاعتناء بالزخارف التي انحسرت على البديع والسّجع والجناس والطّباق والتّورية على حساب المعنى والفكرة، فعادت في العصر الحديث لتعانق الحياة، وتحمل الأفكار، وتصوّر المعاني الإنسانيّة التي يهدف إليها الكاتب، فاتّسعت مجالات الكتابة وارتبطت بالمجتمع.

أصبحت اللّغة تميل إلى السّهولة والوضوح، حيث أصبح الأدباء يهتمون بالمضمون وكيفية توصيل المعاني والأفكار إلى القّراء، والكاتب يكتب ليصور تجربة نفسية أو يقول شيئا محدّدا، كما حاول بعضهم الجمع بين العناية بالشّكل والمضمون، مثل ما فعل (المنفلوطي والرافعي والزيات والعقاد ونجيب محفوظ...)، ولعّل التّطور في اللّغة حاء بعد الصّراع بين المحافظين والمجدّدين وقناعات كلاّ منها.

فالغاية غدت تنصبّ على المضمون بعد أن صار عند الأدباء مخزون ثريّ من الأفكار والمعاني يريدون إيصالها إلى القراء، لكن في بدايات النّهضة ظّل الأسلوب المسجوع الزّخرف سائداً في كتابات الأدباء والمترجمين أمثال رفاعة الطّهطاوي وتلاميذه، فالطّهطاوي، وإن كان من أعلام النّهضة والتّجديد، استخدم الأسلوب المسجوع في كتاباته وترجماته الأولى، جاء في إحدى ترجماته (لم يتولّ قلب ملك من تلك العصابة ولا ساواه غيره في تربيّة الرّعية بهذه المثابة، فالفخار شعاره، والمجد دثاره، وكان احظي الملوك باكتساب الطّاعة من رعاياه والانقياد، كما كان أعلمهم في الهيئة عند الأخدان والأضاد، وربما كان دونهم في ميل الرعيّة إليه ومحبتهم له بانعطاف القلوب عليه، فطالما رأيناه تتقلّب عليه صروف الزّمان وتتلاعب به حوادث الحدثان، وهو عند النّصر يظهر الفخار، ويتجلّد عند الهزيمة ولا يظهر بمظهر الذّل والانكسار فقد أرهب عنده عشرين أمّة عليه تعصبت، وعلى قتاله تحالفت وتحزّبت، وبالجملة فهو أعظم الملوك في حياته، كما كان عظيم العبرة عند مماته...).

على أنّ أسلوب الطّهطاوي في كتبه الأخيرة، تغيّر فأصبح أسلوباً مرسلاً، قلّ فيه السّجع والزّخارف اللّفظيّة، يقول في كتابه "المرشد الأمين للبنات والبنين" المطبوع في عام 1873 محدثاً عن تعليم المرأة (ينبغي صرف الهمّة في تعليم البنات والصّبيان معا... فتتعلّم البنات

القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك، فإنّ هذا يزيدهنّ أدباً وعقلاً ويجعلهن بالمعارف أهلاً ويصلحن به لمشاركة الرّجال في الكلام والرأّي، فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهنّ، وليمكّن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرّجال على قدر قوّتها وطاقتها، فكلّ ما يطيقه النّساء من العمل يباشرنه بأنفسهنّ، وهذا من شأنه أن يشغل النّساء عن البطالة. فإنّ فراغ أيديهنّ عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء، وافتعال الأقاويل، فالفعل يصون المرأة عمّا لا يليق ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة في حقّ الرجال، فهي مذمّة عظيمة في حقّ النّساء....).

وهذا لا يعني أن العناية بالشّكل في الأسلوب قد انتهت كلياً، في النّثر العربي الحديث فقد ظلّ هناك أدباء يعتنون في أسلوبهم بالجانب الشّكلي، لكن دون أن يأتي ذلك على حساب المضمون، أمثال: "مصطفى لطفي المنفلوطي، صادق الرّافعي، أحمد حسن الزّيات، طه حسين...".

إنّ الغالبيّة من الأدباء مالت إلى البساطة والإيجاز والبعد عن التأنّق، بكلّ أنواعه في الجوانب الشّكليّة، حتّى يكون ما يكتبونه مفهوماً عند الجميع، فالأدباء والمترجمون لم يرجعوا إلى الأسلوب القديم الفصيح أو الأسلوب المرسل الحرّ فحسب، بل أخذوا يبسّطون أسلوبهم تبسيطاً لا ينزل به إلى مستوى العامّة أو إلى الابتذال وفي الوقت ذاته لا يعلو عليهم بحيث يشعرون بشيء من العسر في قراءته وفهمه، أيّ أنّه أسلوب بسيط سهل، لكنّه عربيّ فصيح

2- الموضوعات:

كانت موضوعات النّثر قبل العصر الحديث بعيدة عن حاجات النّاس وحياتهم ومشاكلهم، فهي كانت موضوعات محدّدة وساذجة لا أهميّة لها، كان يغلب عليها الطّابع الشخصيّ لا تكاد تتجاوز موضوعات الشّعر من تهنئة يفتح أو ظفر، ومن تعزيّة أو وصف...الخ. إذ كثرت الموضوعات وتعدّدت وتنوّعت منذ منتصف القرن التّاسع عشر نتيجة لليقظة السيّاسيّة وانتشار الصّحف، يطرحون محل الموضوعات القديمة والمحدودة موضوعات عامّة، أيّ أنّهم أحلّوا الأمّة محلّ الأفراد، فلم يعد الكاتب يتوجّه بكتاباته إلى شخص معيّن، بل أصبح يتوجّه إلى

طبقات الأمّة على اختلاف درجاتها، معنى ذلك أنّ الأديب صار أديباً ديمقراطياً، بعد أن كان أرستقراطياً يوجّه حديثه إلى أرستقراطيين من أمراء ووزراء وغيرهم لينال مكافاتهم وجوائزهم.

وعليه النّثر العربي الحديث صار يسعى إلى محيط أوسع، هو محيط الشّعب الذي يكسب عيشه منه مباشرة أي يكتب الأديب لتلبيّة تطلّعات الشّعوب، فصار الخطاب النّثري يحلّل كل جوانب الحياة السيّاسيّة والاجتماعيّة والتّربوية والخلقيّة والدينيّة بما ينشر من الكتب وبما يكتب في الصّحف، وقد نتج عن ذلك ثلاثة أمور:

-1- أن الكاتب للنثّر الحديث لم يعد عبداً لأشخاص بعينهم، أو لهذا الأمير أو هذا الوزير، بل ردّت إليه حرّيته، فهو يكتب كما يريد، لا كما يريد له الأمراء والوزراء، يكتب أراء وأفكاره كما أحسّ بها.

-2- الكاتب تحوّل إلى الجماعة الكبرى، جماعة الأمّة، لذلك راح يرضي هذه الجماعة وشعورها وذوقها، ممّا كان سبباً في نشوء رأي أدبي عام يعلن رضاء وسلطة على حياتنا الأدبيّة.

-3- صار الأدب يعنى بتصوير ميول الجماعة السياسيّة لأنّ الأدباء تحوّلوا إلى الجماعة يخاطبونها ويقدّمون أدبهم إليها، فكان لابدّ أن يخاطبونها في شؤونها العامة التي تهمّها وحياتها التي تعيشها.

حدث هذا التّطور في النّثر أولاً في مصر في عهد إسماعيل الخديوي، لأن العوامل التي أدّت إلى ذلك برزت في مصر أقوى منها في غيرها، من هنا تجد موضوعات هذا النّثر واسعة ومختلفة، وتتناول مشكلات الحياة وما يهّم الشّعوب وما يبعث على اليقظة والنّهضة ولعلّ أهمها:

- الدّفاع عن الأمّة والدّعوة إلى تحريرها من العبوديّة والعنف، والمطالبة بحقوقها المختلفة، والتنديد بالحكّام الظالمين، برز مثل هذا الموضوع عند المصلحين أمثال: (جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده...).

– الدّعوة إلى الأخذ بنظام الشّورى في الحكم، وظهر هذا الاتّجاه عند أغلب المفكرين والمصلحين وبعض الأدباء أمثال: (الأفغاني، محمد عبده، عبد الله النّديم، أديب إسحاق البارودي)، ولقد كتب محمد عبده ثلاث مقالات في الشّوري ووجوب الأخذ بالنّظام النّيابي.

– محاربة الاستعمار وإثارة الحميّة الوطنيّة في نفوس الشّعوب المستذلّة التي غلب على أمرها وقادها ملوكها وزعمائها إلى الدّمار، بينما العدو تربص بهم الدّوائر وقف الأدب النّثري يصرخ في هذه الشّعوب صراخا مدوّي، لعلّها تستفيق من سباتها وتنهض لمحاربة عدوّها.

– السّعي في إصلاح المفاسد الاجتماعية كالفقر والجهل ومفاسد الحضارة الأوربيّة التي أخذت تغزو البلاد منذ عهد إسماعيل الخديوي.

– تحرير المرأة ومساواتها مع الرّجل في الحقوق وفرص التّعليم.

إذن: أصبح النّثر العربي الحديث يكتب طبقات لطبقات الأمّة على اختلاف درجاتها دون الحاجة إلى الكتابة للولاّة والأمراء، فالكاتب يكتب كما يريد وكما يحسّ وكما يدركه بصره، يحاول إرضاء أمّته، ويكتب بشعوره وذوقه.

3– كسب الأدب العربي الحديث فنون أدبيّة ونثريّة جديدة:

لقد شهد النّثر العربي الحديث بتأثير الاطلاع على الآداب الأوربية وشيوع الصّحف فنوناً وأجناسا نثريّة جديدة لم تكن معروفة فيه من قبل، وهي المقالة والقصّة والمسرحيّة والرّواية، وبتفعيل الكلام على طبيعة وخصاص وأعلام هذه الفنون الجديدة سنخصّص لها محاضرات في الحصص القادمة.

وإلى جانب هذه الفنون الجديدة نشطت الخطابة وازدهرت لا سيّما الخطابة السيّاسيّة وهذا يعود إلى عدّة عوامل منها التّأثر بالفكر السيّاسي الغربي، وما وصل إليه من مبادئ في الحريّات والحقوق السيّاسيّة، والتأثّر بالظّروف السيّاسيّة للبلاد النّاجمة عن الحكم السّيء والاحتلال الأجنبي، وتأسيس الأحزاب السيّاسيّة التي أخذ كلّ منها يدعو لنفسه عن طريق الخطباء، وأشهر الخطباء السيّاسيين الذين ظهروا في مصر (مصطفى كامل وسعد زغلول).

كذلك استجدّت خطابة لم تكن معروفة من قبل، أعني الخطابة القضائيّة المتمثّلة في الخطب التي بلقيها المحامون والمدّعون العامون في المحاكم، وقد جاء هذا اللّون من الخطابة نتيجة التأثّر بنظام القضاء الحديث الذي عرفه الغرب في العصر الحديث.

ويمكن أن نربط تطوّر النّثر العربي الحديث بكتابين – في بداية النّهضة الحديثة – يعدّان مصدران أساسيّين للحركة النّثريّة، وهما "مقامات الحرير" و"مقدمة ابن خلدون"، فيمثل الأوّل الأسلوب الصناعي المموّه، كما يمثّل الثّاني الأسلوب الطّبيعي المحكم، لكن القلوب ميّالة إلى المقامات لسحر بيانها ودقّة صناعتها وذيوع طريقها، غير أنّ النّابغين من خريجي المدارس الحديثة المثقّفين بالآداب الأوروبيّة فضّلوا الطّريقة الخلدونية على غيرها لجريانها مع الطّبع وملاءمتها لروح العصر، ومشابهتها لأساليب الغرب، فظهر بهذا الشّكل توجّهين:

– توجّه انفرد بالأسلوب البديعي المقامي، فطغت على كتاباته مظاهر التكلّف وأسرف في المحاكاة وأوغل في الصّنعة التي لم يستطيع التّخلّص منها بشكل كلّي، وتشدّد في القيّاس، ولم يسلم الأداء اللّغوي من مظاهر الضّعف، ولم يسلم الأداء من التّعقيد إلاّ القليل منه. ومن أهم رواد هذا التّوجه: (رفاعة الطهطاوي) في مصر بكتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، و(المويلحي) في مصر بكتابه (حديث عيسى بن هشام)، و(اليازجي) في الشّام بظهور مقاماته (مجمع البحرين).

– توجّه سعى نحو الإصلاح اللّغوي وإرساء تنقيّة الأسلوب الأدبي لتبصير النّشء وإيقاظ حواسه، وتربيّة أذواقه، من خلال الاهتمام بالفكرة، وإيثار المضمون على الشّكل، والتّخفيف من قيود الصّنعة، وترتيب الأفكار، والتخلّص من المقدّمات والأنماط الشّكلية القديمة، من أهم رواده (جمال الدين الأفغاني / محمد عبده / عبد الرحمن الكواكبي).

إذن: الملاحظ أنّ النّثر الفني في صورته الحديثة، ارتبط في نشأته وتطوّره بأطوار ذات صلة بما استجدّ على الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والدّينية والثّقافية، وما طرأ عليها من أحداث ووقائع وعوامل أخرى مطوّرة للاتجاه الفكري.

الطور الأول: يمثل طور **التّرجمة** التي أقبل الأدباء عليها، فتغذّى الأدب العربي بروائع الثّقافات الغربيّة الوافدة في أسلوب عربي رفيع.

الطور الثّاني: يمثّل طور **التّعريب** لعيون الأعمال الإبداعية، كما قام به المنفلوطي في سلسلة إبداعاته النّثريّة، والتي نال بها ذروة عاليّة في عالم الأدب العربي.

الطوّر الثّالث: يمثّل طور **التّأليف** الذي قام من خلاله أدباء العصر الحديث في تحقيق الصّالة والابتكار البديع، والذي بسببه تخلّصت الكتابات العربيّة الحديثة من قيود التكلّف الممقوت، فوجد النّثر الفني حريّة التّعبير عن الحياة وملابساتها باتزان والتزام الأصول الفنّية المحدّدة، فظهر أوّل عمل روائي فني سنة (1910م) يعالج مشكلة اجتماعية، هي رواية (زينب) لـ: محمد حسين هيكل.